التاريخ في خدمة الامة

بقلم شبلي العيسمي

لا شك ان المحافظة على الحقيقة ، عند تدوين التاريخ وتدريسه ، شيء اساسي وثمين . ولكننا نعتقد ان الفوائد التي نجنيها من كتابة التاريخ وتدريسه على اساس من الانتقاء والتوجيه لا تقل أهمية عن تحري الحقيقة . ذلك ان الحوادث الموجهة التي تغذي في نفوس المواطنين حب النضال والتمرد على الفساد والجمود، هي حوادث حية دافقة لا يمكن ان تدانيها الحوادث المجردة التي لا تترك اثراً في النفس ولا تدفع الى الحركة والنشاط ، والتي قد تخلق نوعاً من التخاذل والتشويش . لهذا نعتقد ان من المفيد ومن الجائز المشروع ، ان لم نقل من الضروري اللازم، ان يكتب التاريخ العربي ويُدرس في المرحلتين الابتدائية والثانوية على اساس من انتقاء الحوادث وتوجيهها بالشكل الذي يؤدي لتحقيق الفوائد المذكورة .

اما في الجامعة حيث لا بد من الاعتماد على العقل والمنطق، وفسح المجال للنقد الفكري وتحري الحقيقة العلمية المجردة، فلا بأس من التنقيب عن الحقائق التاريخية وعرضها في صورها الواقعية . وبعبارة واحدة : اذا اردنا ان يكون لتاريخنا صلة حية بنا وفائدة لنا فما علينا الا ان نعيد كتابة التاريخ العربي باسلوب جديد قائم على التوجيه القومي المركز ، الذي يخدم آمال العرب وامانيهم في هذه المرحلة التاريخية من حياتهم .

ولتوضيح هذا الرأي وجلاء المقصود منه نذكر الامثلة التالية :

١ - لقد ورد في احد كتب التاريخ للصف التاسع الثانوي في سوريا ما نصه « ان الشعب العربي الذي كان سابقاً في نظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العلهز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) ، والذي حسب ابناؤه الارز لأول وهلة سُماً وظنوا المرقوق من الخبز رقاعاً للكتابة ، هذا الشعب تهيأت له اسباب الحضارة .. الخ » .

أجل ، اننا لا نعتقد ان في مثل هذا القول خطراً على الناشئة فحسب بل ان فيه خطأ تاريخياً فادحاً . فمن حيث التوجيه تصور هذه العبارة الشعب العربي في الجاهلية متوحشاً جاهلاً لا يفقه شيئاً من معاني الحضارة والرقي ، وان العرب لم يتحضروا بعد الاسلام الا بفضل الاعاجم والامم المجاورة . ثم ان خطر هذه العبارة الاول ، يكمن في ان ما تحتوي عليه من مبالغة وصور غريبة يزيد من انتباه الطالب اليها ، بل يصعب ان ينساها فتبقى راسخة في ذهنه، وقد يرددها وكأنها حقيقة تاريخية . والخطر الثاني يظهر في تعميم هذا الحكم على الشعب العربي في الجاهلية ، مع ان الدراسة الجدية لعصر الجاهلية قبيل الاسلام تبين لنا بما لا يقبل الشك ان الوعي السياسي والاجتماعي والفكري بلغ حداً مكن العرب من حمل رسالة الاسلام . هذا وقد اصبح طبيعياً في نظر علماء الاجتماع ان يكون متعذراً على نهضة او دعوة جديدة سواء كانت دينية ام سياسية ان تنتشر في وسط معين ما لم يكن لدى هذا الوسط استعداد كاف لظهورها ونموها فيه .

ومع ذلك يكفي ان ندرس الشعر الجاهلي وان نطلع على النشاط التجاري لعرب الجاهلية واختلاطهم مع الامم المجاورة ، وان ندرس آراء بعض مفكريهم كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل حول الدين والمجتمع ، بل يكفي ان نتأمل في ما ورد في القرآن الكريم من وصف وعبارات تشهد بما كان لعرب الجاهلية من حضارة وتقدم . نقول يكفي ذلك ليبدد من اذهاننا امثال تلك الصور التي تُظهر لنا عرب الجاهلية جميعهم بداة متوحشين منحطين .

ولو سلمنا جدلاً بانه وجد في المجتمع الجاهلي افراد يأكلون العلهز، ولنفترض ان آخرين رأوا الارز فظنوه سُماً ورأوا الخبز فظنوه ورقاً ؛ فهل يجوز لنا ان نعمم هذا القول على الشعب العربي دون نقد او قيد او تحديد ؟ . والواقع اننا لو اردنا ان نطلق احكاماً وقيماً من خلال الاعمال الفردية لاستطعنا ان نصور بعض المجتمعات الراقية في هذا القرن العشرين بالذات ، بصور تبدو أشد جهالة وتأخراً من الصورة التي يعطيها لنا « آكلو العلهز » . واننا في الوقت الذي نرى

في هذه العبارة دعوة شعوبية خطرة على النشء الجديد ، نعتقد ان مؤلفي كتاب التاريخ لم يقصدوا من تدوينها اكثر من ابراز اثر الاسلام وفضله على العرب وبيان تطورهم السريع بعد اعتناقهم الاسلام واختلاطهم بالامم المجاورة. ونعتقد كذلك ان انشغال المؤلفين في امور اخرى متعددة تضطرهم لنقل مثل هذه العبارات دون التدقيق في حقيقتها والتنبه لأضرارها على الناشئة .

٢ – ولنذكر مثالاً من نوع آخر : كثيراً ما يذكر في كتب التاريخ للصفوف الثانوية عند الكلام عن الفنون العربية مثلاً ، ان الفارابي من اصل تركي .. الخ ..

ونعتقد ان الاشارة الى جنسيته وتذكير الطلاب بأصله التركي يلقيان في ذهن الطالب نوعاً من الالتباس والتشويه على الاقل حول فضل العرب في الفنون ، مع اننا لو قمنا بتحريات عن كبار العلماء وعظماء السياسة والفن لدى الامم الاوروبية لوجدنا ان مئات من هؤلاء الذين تفتخر بهم امهم ليسوا من اصل هذه الامم . والواقع ان الانسان ابن بيئته ومجتمعه واللغة التي يتكلم بها . فما دام الفارابي قد نشأ في بيئة عربية ومجتمع عربي وتكلم ثم كتب باللغة العربية ، فلا حاجة بعد ذلك لذكر حسبه ونسبه لطلاب الدراسة الثانوية كيلا نوحي بالشك في انتاجه العربي .

٣ – بعد ان ذكرنا المثالين السابقين من التاريخ العربي نورد المثال الآتي من التاريخ الاوروبي : من الملحوظ ان اكثر مؤلفي كتب التاريخ الثانوية يبرزون اثر نابوليون الثالث في تحقيق الوحدة الايتالية (متأثرين في ذلك بالكتب الفرنسية) ونزعم ان توجيهاً كهذا يحمل الطالب على الاعتقاد بان الاتحادات القومية لا بد لها اذا ما ارادت النجاح – من ان تعتمد على مؤازرة اجنبية. ولا شك ان مثل هذا الاعتقاد يشكل خطراً كبيراً على روح النضال الشعبي في الامة ، وخاصة اذا كانت لا تزال في مراحل تكوين وحدتها القومية ، كالأمة العربية في مرحلتها الحاضرة .

اما الواقع فان الوحدة الايتالية التي تتخذ مثالاً للدلالة على اثر المساعدات الاجنبية في تحقيق الوحدات القومية ، لم يكن لنابليون الثالث فيها الا اثر ثانوي ضئيل ، في حين كان الشعب الايتالي بمنظماته واحزابه واكثر حكوماته يناضل لتحقيق هذا الهدف قبل ان يتدخل نابليون بما يزيد عن نصف قرن . وكانت الثورات تتكرر من اجل ذلك في مختلف المقاطعات الايتالية. هذا وعلى الرغم من مهارة كافور في السياسة وحسن افادته من التنافس بين فرنسا والنمسا في ذلك الحين ، فانه لم يستطع ان يضمن بقاء نابليون الى جانبه في الساعات الحاسمة من الحرب ضد النمسا. وبناء على هذه الوقائع التاريخية نستطيع ان نوضح كيف كان نضال الشعب الايتالي لعشرات السنين ، الحجر الاساسي في تحقيق الوحدة ، وان نوضح الاثر الفعال الذي تركته كتابات المفكرين الايتاليين حول الحرية والوحدة ، امثال مازيني ، وماميني ، والفيري وفوسكولو وغيرهم ، وان نبين الدور الذي لعبته الجمعيات والاحزاب السياسية كمنظمة ايتاليا الفتاة والكاربوناري وغيرهما وخاصة بعد ان انتشرت بين صفوف الشعب على نطاق واسع واخذت تركز في اذهان الموطنين اهداف ايتاليا في الحرية والوحدة . ولا شك ان توضيحها لهذه الاهداف كان سابقاً للعمل لها ، كما ان حمل جمهور الشعب على الايمان بصحتها وحاجتها قد عجل في تحقيقها . واذا اضفنا الى ذلك كله ماقام به كافور من تقوية للجيش وتنشيط للحياة الاقتصادية وتوفيق بين الاحزاب السياسية في الاهداف الاساسية ، وان التطور السياسي والاجتماعي في تلك المرحلة التاريخية من حياة اوروبا كان يسير في مصلحة الوحدات القومية للامم الاوروبية ، وان هلهلة الانظمة الرجعية وانحلالها عهد مترنيخ وبعده ، كانت تدل بوضوح على ان الوحدة الايتالية لم تكن قابلة للتحقيق فحسب بل كانت امراً مؤكداً لا ريب فيه ، ولو لم يتدخل نابليون ، بدليل ان روسيا كانت قد ساعدت النمسا ضد ثورة المجريين من اجل الاستقلال والوحدة عام ١٨٤٨ م ، فلم يكن من نتيجة هذا التدخل سوى تأجيل هذه الوحدة الى عام ١٨٦٧ م .

اجل ، اذا اضفنا هذه الملاحظات لما تقدم نستطيع ان نطمئن الى ان الطالب العربي يخلص من قراءته للوحدة الايتالية بنتيجة صحيحة مفيدة ، وهي ان قوة الشعب لداخلية وتنظيم جهوده واستمراره في النضال هي التي تقرر مصير الوحدات القومية .

على هذا الاساس وضمن هذا الاتجاه والتوجيه يجب ان يكتب التاريخ العربي للطلاب العرب في المرحلتين الابتدائية والثانوية .

ولكن اذا كانت هنالك حوادث يصعب توجيهها ، وكان اهمالها في الوقت نفسه ممكناً ولا يشكل ثغرة فاضحة في مجرى الحوادث ، فمن الافضل عندئذ اهمالها والاستغناء عنها.

الغنية والاد

صنعت لك
عرشاً من الحرير ... مخملي
بخرته من صندل
ومسندين تتكي عليهما
وجلة من الرخام .. صخرها الماس
جلبت من سوق الرقيق قينتين
قطّرت من كرم الجنان جفنتين
والكأس من بللور
اسرجت مصباحا
علقته في كوة في جانب الجدار
ونوره المفضض المهيب
وظله الغريب
في عالم يلتف في ازاره الشحيب
والليل قد راحا
وما قدمت — انت — زائري
[الحبيب ؟

هدمت ما بنيت
اضعت ما اقتنيت
وانتظرت .. انت ما اتيت
خرجت لك
علّني أوافي محفلك
ومثلما ولدت — غير شملة الأحرام
[— قد خرجت لك
اسائل الرواد
عن ارضك الغريبة الرهيبة الاسرار
في هدأة المساء — والظـــلام خيمة
[سوداء
ضربت في الوديان والتلاع والوهاد
اسائل الرواد
« ومن اراد ان يعيش فليمت شهيد
عشق »

انا هنا ملقى على الجدار
وقد دفنت في الخيال قلبي الوديع
وجسمي الصريع
في مهمه الخيال قد دفنت قلبي الوديع
معذبي يا أيها الحبيب
أليس لي في المجلس السني حبوة
[التبيع
فانني مطيع
وخادم سميع
فان أذنت انني النديم في الاسحار
حكايتي غرائب لم يحوها كتاب
طبائعي رقيقة كالخمر في الأكواب
فان لطفت هل الي رنوة الحنان
فانني ادل بالهوى على الاخدان
اليس لي بقلبك العميق من مكان
وقد كسرت في هواك طينة
[الانسان
وليس ثم من رجوع .

« القاهرة » **صلاح الدين عبدالصبور**
من الجمعية الادبية المصرية

اما اذا كانت هذه الحوادث التاريخية من النوع الذي يصعب اهماله فلا بد من عرضها بايجاز مع بعض التعليقات الموجهة التي يمكن الافادة منها . ومثال ذلك : قتل الخلفاء العباسيين لابي سلمة الخلال وابي مسلم الخراساني والبرامكة ... فهنالك فرق كبير بين ان يعرض قتلهم على انه خيـــانة وغدر، وبدافع من نزعة الاستبداد وحب سفك الدماء ، وبين ان يعرض على انه قصاص لهم لتآمرهم على سلامة الدولة وسعيهم لتقويض الحكم العباسي ، كما دلت محاولات الاعـــاجم المتكررة في العهود التي ضعف فيها الخلفاء العرب وتساهلوا مع امثال هذه العناصر الاعجمية الطامحة حتى سيطرت على السلطة وقوضت دعائم الحكم العربي .

قد يرد بعضهم على هذا التوجيه بقوله : ان للحقائق من قوة التأثير والانتشار بحيث لا يمكن للحوادث الموجهة ان تتغلب عليها كائنة ما كانت من قوة الدعاية والتركيز . واننا اذا اردنا ان نكتب التاريخ العربي على هذا الاساس الموجه ، فان اعداء العرب والمتحمسين للابحاث العلمية يستطيعون ان ينشروا الحقائق فتتهافت عندها الحوادث الموجهة وتنعدم ثقة الطلاب بما يتعلمون من وقائع التاريخ .

ونحن مع اعترافنا بقيمة هذه الملاحظة واثرها فاننا نعتقد المحذور الناتج عن توجيه الحوادث التاريخية ، يبقى اقل ضرراً واخف خطراً من ابقاء التاريخ بالشكل الذي ذكرناه . زد على ذلك ان طلاب المرحلتين الابتدائية والثانوية لن يكون لديهم من سعة الوقت وحب الاستقصاء ودقة الملاحظة ما يدفعهم الى الاطلاع على الدراسات المفصلة واكتشـــاف الاختلاف بين مايقرأونه فيها وبين مايقرأونه في كتبهم المدرسية .

وبعد : فما دامت المرحلة التاريخية التي يجياها العرب في الوقت الحاضر هي مرحلة النضال ، وما دام تدريس التاريخ وتدوينه على اساس الانتقاء والتوجيه يخدمان هذه الاهداف ويعجلان في تحقيقها ، فمن الواجب كتابته وتدريسه بهذا الاسلوب الجديد الذي حاولنا توضيحه .

السويداء **شبلي العسيمي**